ادبنا القومي

— ٢ —

مادة الادب المصري ومظاهره : قبل ان نتناول هذا الموضوع يجمل بنا ان نلم المامة قصيرة بتاريخ لغة العرب في هذه البلاد . لم يكن المصريون الى الفتح الاسلامي يتكلمون العربية ولم يكن لهم بها عهد ، بل كانوا يتكلمون القبطية ، وكثير منهم كانوا يحذقون اللاتينة ، طوعاً لخضوعهم العصور الطويلة لحكم الرومان ، فلما فتح العرب مصر حملوا اليها لغتهم فيما حملوا . ولم يكد يستقر لهم الامر فيها حتى انحدر اليها ، وخاصة في العهد العباسي ، صدر كبير من العلماء والادباء والكتاب ، وكلما ضعف شأن الدولة العباسية ازداد اقبال هؤلاء على مصر لوفرة خيراتها واقبال غلاتها من جهة ، ولان امراءها حين طمعوا في الاستقلال بها كانوا يدعونهم ليقيموا بعلومهم وآدابهم صدر دولتهم الناشئة . بل لقد التجع امراءها في فناء الدولة العباسية كثير من جلة الشعراء طلباً لرفدهم او لغير ذلك كأبي نواس وابي تمام . كما طلبها بعد ذلك ابو الطيب المتنبي في عهد كافور الإخشيدي .

وما كاد الأمر في مصر يستقيم لاحمد بن طولون حتى كان الأدب بلونيه (شعره ونثره الفني) قد دخل ايما دخولة وازدهر ايما ازدهار . ولكن لا يفوتك ان ذلك انما كان بين النازحين الى مصر من الأقطار العربية وعلى السنتهم . واذا كانت العربية قد شاعت في ذلك الوقت على السنة المصريين ، فالعربية التي تكفي للترجمة عن حاجات الناس في أسبابهم الدائرة ، لا للأدب الفحل ، والقول الجزل .

على ان العربية ظلت تغزو ألسنة المصريين انفسهم ، وتطبع ملكاتهم بطول الحكم العربي (الدولة الطولونية والإخشيدية) والمستعرب (الدولة الفاطمية والايوبية) وما تخلل هذه العهود حتى نجم من بين الصميم في المصريين من حذقوها وبرعوا فيها ، ووفوا بما نظموا وما نثروا حقوق البيان . لولا انه في مؤخرات تلك العصور جعل الادب يتجه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى صرف القول عن كرائم المعاني الى الحرص على تجويد اللفظ ، وزخرفة الكلام وتزيينه بالتماس الوان المحسنات البديعية . وما زال الأدباء يتبارون في هذا ويجتمعون له ويسرفون فيه حتى اهلكوا او كادوا يهلكون بيان العرب .

ولا احب ان يذهب عنك في هذا المقام ان هذه الألوان من الأدب انما كانت محصورة فيمن يتكلفون الأدب ، اما جمهرة الناس فكانوا لا يعرفون غير العامية ، وان كانت عامية معظم مادتها مشتق من العربية .

ثم كان حكم دولتي المماليك ، ولولا عنايتهم كانت بالعلم وقيام الجامع الازهر في مصر يدرس فيه كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم لعفي أثر البيان العربي من هذه البلاد ، على ان الادب في عهدهم قد ازداد ضعفه وفسولة مطالبه ، وعلى ان العامية نفسها قد تداخلها كثير من الصيغ الأعجمية .

ثم جاء الفتح العثماني فزاد اللغة بلاءً على بلائها ، فما برحت تضمر وتهزل وتسف حتى اقتربت من الفناء لولا الازهر ايضاً ومايدرس فيه من كتاب الله وسنة رسوله ، وان كانت دراسة لم تصل بين النفس وما فيهما من بلاغة رائعة ، ولولا دراسة جثت بالية من علوم البلاغة صرف أبلغ الجهد في تدريسها الى فلسفات لفظية ليس بينها وبين حقيقة البلاغة نسب قريب او بعيد ، ولولا ان خلقاً شبوا على ان هناك شيئاً يدعى الشعر ، وشيئاً آخر يدعى النثر جلت بهما اخطار من سبقوهم من اهل البيان ، فتكلفوهما هم كذلك . وانك لترى المثل واضحاً بين يديك في مثل الشيخ عبدالرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف ، فلقد كان ، عالماً وابن عالم ، وكان رجلاً معدوداً عند اهل عصره في خاصة الادباء . وانه ليحتفل للكتابة في أدق الموضوعات واحقها بالتأنق في اختيار اللفظ ، وملاحمة النسج ، والارتفاع بالقول . ولقد يبلغ بعض هذا الا انه قل ان يسلم من السقوط في العامية ، بل والاستعانة باللفظة الأعجمية (تركية وغير تركية) وقل ان يسلم كذلك من تزايل الصيغ وتفكك العبارات .

ثم كانت الحملة الفرنسية فانصرف الناس عن معالجة الذماء الباقي من العلم والأدب الى التماس الحيل في مدافعة الظلمة ، والتحرف عن أذاهم ، ولقد علق شيء من لغتهم بحواشي لغة البلاد حتى ان الشيخ الجبرتي نفسه يذكر عن نابليون انه دعا مرة علماء مصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخاصة أعيانهـا على أثر انتقاض المصريين على عسكره فقال لهم فيما قال (على رواية الجبرتي) أنتم لستم (بونو) اي قوماً خياراً !!!

ثم كان عصر محمد علي الكبير ، ولمحمد علي في الحياة مطالب جسام لبس بوانيه بها الا جيش عظيم ، والجيش يحتاج بالضرورة الى اطباء يعالجون المرضى من جنده ويضمدون جراحاتهم اذا هم أصيبوا في ميادين القتال فكان لابد له من ان يقيم مدرسة للطب ولم يكن في مصر الى ذلك العهد اطباء ، فكان لابد له ايضاً من ان يدعو بالاساتذة الاطباء من الغرب . ولكن كيف الحيلة في ذلك وهم لا يعرفون العربية اذ تلاميذهم في مصر لا يعرفون على التجوز غير العربية ؟

لم يبق الا حل واحد ، هو الذي وفق اليه المغفور له محمد علي باشا ، وهو ان يقيم بين الاساتيذ وتلاميذهم تراجمة يؤدون الى التلامذة المصريين ما يلقيه عليهم أساتذتهم الغربيون .

وتهيأ لمحمد علي ان يعثر على هؤلاء المترجمين بين الجماعات النازحين الى مصر من السوريين والمغاربة وغيرهم من اهل الملل الشرقية المختلفة ، ولم ير رحمه الله بعد ذلك مناصاً من ان يبعث بعوثاً من التلاميذ الى اوربا ليتذوقوا لغاتها ويتعلموا علومها فكان من صنيعه هذا ان عقد اول صلة بين مصر ولغات الغرب .

وأنشأ محمد علي بعد ذلك مدارس أخر لتدريس علوم الحياة المختلفة ، وهنا شعر وشعر من استعان بهم على هذا الاثر ان لابد من احداث حدث حتى توالت لغة المصريين المنقطعين عن العلم الحديث بمطالب العلم الحديث ، فجد رفاعة ولدات رفاعة ، واعتصروا قواميس اللغة ، واعتصروا معها أذهانهم حتى أخرجوا في العربية فنون المصطلحات في الطب والهندسة والفلك والزراعة وفنون الحرب وغيرها ... فعلوا هذا على قلة الحيلة وضعف الوسيلة ، فدل عملهم مهما اضطربوا فيه ومهما تعسفوا ، ومهما افتاتوا على اللغة — على شدة جهد وعلى صدق عزم وعلى تهالك في سبيل العلم .

ثم جاء عصر اسماعيل ، وشاعت العلوم الحديثة في البلاد فاستكرهت اللغة العربية جماعة العلماء على مراجعتها واستظهار ماظل الدهور الطويلة محفوظاً من مفرداتها وصيغها ليوافوا بها على قدر الطاقة مطالب تلك العلوم . وتم لهم من هذا قدر محمود . ولم تكن العناية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالآداب باقل حظاً من العناية بالعلوم ، فجعل الشعر يجود ، والنثر يرصن وتتسع مطالبه الى ان طفر البارودي بالشعر حتى رده الى أزكى عهود العصر العباسي ، كما طفر الشيخ حسين المرصفي والمويلحي والشيخ محمد عبده وغيرهم بالنثر الفني حتى ردوا عليه كثيراً من جمال لفظه ، وتلاحم نسجه ، وسمو أغراضه وتلون مطالبه . وما برحت هذه النهضة في اطرادها حتى اليوم . ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك في هذا المقام ان ادراك الشعر والنثر الفني وتذوقهما ما زالا دائرين بين جماعة الادباء ، وهم بالاضافة الى السواد الأعظم أقل من القليل . اما سائر الناس فادراكهم وذوقهم في واد ، وهذا الضرب من الأدب في واد آخر .

* * *

واذا كان الأدب هو أبلغ مظاهر اللغة أدركت ان الادب العربي بدأ في مصر قوياً ، وظل كذلك دهراً طويلاً ثم لحقه الضعف ومازال يتدلى فيه حتى أشرف على الزوال . ثم انتعش وجعل يقوى حتى بلغ ماتراه في هذه الايام ، على انه في حالتي قوته وضعفه ظل فهمه وتذوقه مقصورين على جمهرة الادباء . اما السواد فلبث غارقاً في العامية في جميع هذه الأطوار حتى ليكاد يكون بينه وبين فصيح العربية تمام الانقطاع . ولملك تحاجي بان العامة وأشباه العامة هم الكثرة الغامرة في كل أمة . ومع ذلك تراهم في الامم الأخرى يدركون بلاغات شعرائهم وفحول كتابهم وكثيراً ما تستريح اليها أذواقهم . فلماذا لم يجر الأمر على هذا في مصر وفي اكثر البلاد العربية الاخرى ؟

ذلك ان الفرق بين صحيح العربية ومرسل العامية في مصر وفي غير مصر أوسع منه في اكثر لغات العالم ان لم يكن في لغات العالم كلها ، حتى اذا علوت بلغتك بين العامة لم يفهموا منك كثيراً ولا قليلاً وكادوا يحسبون لولا مايشيع في كلامك من حروف الجر ونحوها ، ان لسانك انما يجري برطانة اعجمية !

ولقد بلغ من سلطان العامية في هذه البلاد ان خاصة الخاصة من العلماء واهل البيان انما يتخاطبون بها في مجالسهم ، حتى اذا انبعث احدهم لخطبة او لمحاضرة في العلم او الأدب تكلف العربية تكلفاً ، وقل الا تزلقه العامية بسطوتها حتى في هذا المقام ، مايعصمه منها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شدة حرصه على تحري العربية واحتفاله لها ، اللهم الا ان يكون قد سوى من قبل كلامه وحفظه ثم راح يتلوه عن ظهر قلبه .

الى هنا حق لنا ان نزعم ان ابلغ مظاهر الأدب العربي (الشعر والنثر الفني) لم يتصل بمصر اتصالاً صحيحاً ، وانما اتصل به في كل عصر طائفة ممن يتكلفون الأدب ، وهم بالقياس الى السواد كما أسلفنا اقل من القليل .

واذا تهيأ لجماعة الشعراء والكتاب الفنيين ان يتخذوا من الأدب العربي الصريح أداة للترجمة عما يجول في نفوسهم ، ويختلج في حسهم (ولنا بعد في هذا كلام) وتهيأ لهم كذلك من يدرك آثارهم ويتذوق بلاغتهم من جماعة المتأدبين ، فان للسواد ايضاً شعوراً يعتلج ، وعواطف تترقرق ، فترى هل يكتمها في نفسه ويحقنها بين أضالعه حتى يأذن الله فيصيب حظاً من فصح العربية ليتنفس بها ويجليها على سواه ؟ اللهم ان هذا من غير الميسور ! . فلم يبق إذن غير العامية او شبه العامية مما يتصل اعلاه بادنى الأدب العربي الخالص ، يتوسل بها الى صوغ احساسه ونفض ما يجيش في نفسه من الوان العواطف .

ومن هنا عمد المصريون الى الزجل والى الموالي (وهي قديمة ترجع نشأتها الى عصر الرشيد) والى سائر أسباب الغناء (المذاهب والأدوار والطقاطيق) والى (الواوات) الصعيدية ، والى المقطوعات المنظومة على أقيسة لا صلة لها باوزان الشعر العربي . والى ماتسح به البدائه من ألوان التندر والمفاكهات . والى الاحاجي (الفوازير) ثم الى النكتة البلدية (ايش معنى) وهي مصرية خالصة ولدها مخ الحشاش المصري . واخيراً الى ما يدعى الآن (بالمونولوجات) وبدأت تتسرب الى أذواق المصريين .

والحديث في منشإ كل نوع من هذه الانواع وتطوره على الزمن يحتاج الى بحث طويل عريض ، ولعلنا معالجوه قريباً ان شاء الله .

ولعلك آخذي بانني لم أدرج بين هذه الفروع من الأدب المصري الموشحات الاندلسية وهي شائعة في أغانينا ، حتى ان من آداب الغناء المصري وتقاليده المأثورة الا يبدأ (التخت) الا بموشحة . ذلك ان طائفة المغنين انما هم في الغالب من الجهال ، فيندر ان يطلقوا هذه الموشحات البديعة على حقيقتها . فتراهم ينشدون مثلا : « كفي يا سحب تجان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الربى بالحلي » هكذا : « كلي يا صحبتي جانا الرضى بالحلي » ! . هذا الى ان أصواتهم تختلط فيها حتى مانتبين منها غير النبرات الموسيقية ، اما الفاظها فلست بمدرك منها شيئاً . لهذا لم تتصل بافهام المصريين ولم تتسلل الى أذواقهم . ولهذا لم ادرجها في جملة آدابهم .

وهنا أحب ان الفتك الى حقيقة واقعة وهي ان العامة وأشباه العامة لم يستأثروا وحدهم بنظم آدابهم المختلفة ، بل ان كثيراً من الخاصة وخاصة الخاصة من الادباء والشعراء قد ساهموهم في هذا ، وأخرجوا البليغ الرائع من ألوان هذا الكلام . و بحسبك ان تعرف ان العالم الكبير الشيخ القوصي ، وان مولانا الشيخ عبدالرحمن قراعة ، وان المرحوم الشيخ النجار كانوا من كبار الزجالين ، ولقد كانت لهم في هذا الباب مطارحات ومنافحات كانت شغل البلد وحديثه دهراً غير قصير ، و بحسبك ان تعرف ان لشيخ الشعراء اسماعيل صبري باشا ، ولامير الشعراء شوقي بك ، ولشاعر النيل حافظ بك (ادواراً) بديعة لا يزال يتغنى بها المغنون الى الآن . وان مما لا أولهم « قدك اميرالاغصان من غير مكابر ، وورد خدك سلطان على الازاهر ، دا الحب كله أشجان ياقلب حاذر الخ » وان لثالثهم دور : « عشنا وشفنا سنين ، ومن عاش يشوف العجب ، شربنا الضنا والانين ، جعلنا لروحنا سبب الخ » واما ثانيهم فاسمع منه في هذا المطرب والمعجب على لسان عبد الوهاب وغير عبد الوهاب .

ولعلي لا اكون مغالياً اذا باديتك بانهم في هذا كانوا أصدق ترجمة عما يختلج في صدورهم منهم في اكثر أشعارهم ، فضلاً عن انهم أذاقوا الخاصة والعامة معاً صدراً حلواً من منظوم الكلام .

وليسمح لي وانا في مقام علمي كتمان الرأي فيه ضرب من الخيانة والاجرام ، ان اكون حق صريح ، فأزعم ان هؤلاء واولئك كانوا فيما نظموا في هذه الابواب ، أصدق تعبيراً عما يجول في صدورهم ، واقدر على تجلية كل ما تنزى به عواطفهم ، لان العامية وشبه العامية هي لغة البلد التي عاش فيها ثلاثة عشر قرناً فكان من البديه الا تختلف عن مواتاة المصري بكل ما يتحرى أداءه في وجوه المطالب والاغراض . .

ثم مالنا ولهذا ! أليس عندنا الآن من اهل البيان من لا يتعلق بغبارهم ، وانهم ليتحرون فصيح اللغة وينفرون كل النفور من معاجمها و يراجعون مأثور البليغ من الصيغ العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليؤدوا بها قولهم ؟ وانك لتراهم مع هذا يعتمدون الكلمة العامية اعتماداً ليخرجوا بها للناس معنى دقيقاً يحبون ان يجلوه كاملاً على جمهرة القارئين اذا لم يكن يعوزهم في الواقع من صحيح العربية ما يؤديه !

* * *

وبعد فأحسب انه لم يبق عندك شك في ان أدبنا القومي وان كان في اصل مادته يرجع الى العربية ، كان ومايرح قائماً على العامية وشبه العامية ، فاذا انت اقتضيتني بيان الفروق بين آثار كل منهما فانظرني الى يوم الاربعاء المقبل ان شاء الله .

* * *

الادب العربي في العصر الحديث : علمت مما سلف عليك ان العربية الصحيحة الجزلة الفصيحة لبثت أدهاراً غير قصيرة في شبه قطيعة مع المصريين ، ولبث الادب العربي الخالص في هذه الفترة كذلك مع متأدبيهم ، الى ان كانت نهضة اللغة والادب في عصر اسماعيل فنجم من نجم من فحول الشعراء ومنقدمي الكتاب في طفرة او ما يشبه الطفرة . وليس معنى هذا ان معاصري البارودي اذذاك بلغوا مبلغه اوتعلقوا بغباره ، ولا ان المترسلين من معاصري من ذكرنا من جلة الكتاب قد شاكلوهم او جروا في البيان على سننهم ؛ بل لقد ظلت الكثرة الغامرة من هؤلاء وهؤلاء في أسفافها وفسولة معانيها وتزايل الفاظها . ولم يكن الذوق العربي الصحيح قد نضج في نفوس اكثر من يتكلفون الادب ؛ فكان لهؤلاء كثير من المعجبين بادبهم الحافظين لاشعارهم المترسلين لمرسل بيانهم . ولبثت هذه الحال دهراً حتى تداولت الناس معاجم اللغة ، وشاعت بينهم بفضل المطابع ، دواوين السابقين من الشعراء أمثال ابي نواس وابي تمام والبحتري وأضرابهم ، كما أقبلوا على مراجعة كتب المتقدمين من فحول امراء البيان أمثال ابن المقفع والجاحظ وابي الفرج وغيرهم ، فجعلت الملكات العربية تربو ، والاذواق تنضج ، كما جعلت النفوس تهفو لناضج القول وجزل البيان .

الا انه قد وقع ما لم يكن بد من وقوعه ، ذلك ان متأدبينا قد افترقوا في أساليب البيان بحكم ظروفنا افتراقاً شنيعاً لان منهم من رأى اعلى الامثلة في الادب العربي فيما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

روي عن العرب في جاهليتهم ، ومن كانوا يشاكلون جاهليتهم فأكب على مثل المعلقات والمذهبات والملحمات الخ واراجيز مثل رؤبة والعجاج ، وراح يحفظها و يستظهر غريبها و يشاكلها في كل شيء اذا نظم فيتعمد الاتيان بالغريب ، و يركب متون العيس يقطع بها القفار و يهتف بالدمن و يشبب بالديار و يناجي النؤي والاحجار الخ . وطائفة من المتأدبين قد توفروا على قراءة شعر الشعراء من مطلع الاسلام الى غاية الدولة العباسية والدويلات التي انصدعت عنها ونثر من نجموا في هذا العصر . ولا ننس ادب الاندلس وراحوا يشاكلونهم في كل منازع كلامهم ، ومجالي تشبيهاتهم اذا هم نظموا او نثروا . وهناك فئة ثالثة من المتأدبين ظلوا عاكفين على ادبهم الذي ورثوا عن العصر التركي . وفئة رابعة اخذوا حظاً من لغة العرب وحظاً من لغات الافرنج ، وهؤلاء لهم أسلوبهم الخاص بهم وفنون تشبيهاتهم . ونشأت كذلك فئة خامسة تأدبت بادب العرب واستظهرت أخيل ماقالوا في جاهليتهم واسلامهم ، وتأدبت في الوقت نفسه بادب كبار شعراء الغرب وجلة كتابه ، فاذا اجتمع هؤلاء للبيان تمثلت لهم صور المعاني الغربية وجلال الصيغ العربية ، فلا يكن لهم بد من ان يستكرهوا هذه على اداء تلك ، وبهذا خرج ايضاً للادب العربي في مصر نوع جديد .

ومن هنا تعرف لماذا اضطرب الادب العربي في مصر في هذا العهد ، وكيف تبلبلت لهجاته وأساليبه ، حتى لو اطل عليه رجل ممن حذقوا هذه اللغة ولم يكن له بمصر عهد لم يصدق ان هذه اللهجات المتباينة تجري كلها في وقت واحد وفي بلد واحد !

على انه مما لا ينبغي ان يفوتنا في هذا المقام ان انتشار المجلات العلمية والادبية وعناية الصحف على اختلاف ألوانها بتجويد اللغة وتحري الصحيح ، وتجريد بعض صفحاتها للآداب والفنون — لقد كان من اثر هذا أن جعلت اللهجات تتقارب رويداً رويداً ، بترديد نظر كل طائفة في أسلوب غيرها ، والتقاطها الجيد المطبوع من صيغها ووجوه تعبيراتها ، وجرياً على السنة الطبيعية سنة بقاء الاصلح .

نعم ، لقد جعلت اللهجات تتقارب ، والاساليب تتشابه ، لولا فروق دقيقة يحسها النقدة من اهل البيان . الا انه مازال هناك فريقان واضحان : احدهما الفرق بين اصحاب القديم وأنصار التجديد « وتحقيق هذا الموضوع لا يتسع له حديث اليوم فنترجئه الى يوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آخر » . والثاني مالا يزال بعض مؤلفي الروايات ومعربيها يسفون فيه من الاتيان بصيغ مبتذلة وتعبيرات مفككة يطلبون بها اداء صور وأخيلة افرنجية ، من نحو : يا وصيفة المخدع ، والموت البنفسجي ، وان الشيطان ليرتبك في نسيج عنكبوته الخ .

ولعل السبب في ذلك هو التهافت على الصور والمعاني الاجنبية ، وعدم التمكن من صحيح العربية بالقدر الذي يهيئ للمؤلف او المترجم اداء جملة المعنى في صيغة يتقبلها الذوق المطبوع على لغة العرب .

ولعلك معارضي بان شاعراً حتى في ازكى عصور اللغة ، لا يشاكل أسلوبه أسلوب شاعر آخر بعاصره ، وقل مثل هذا في أئمة الكتاب ، حتى ان الناقد البصير ليستطيع ان يميز بين شعر ابي تمام والبحتري ، وبين شعر بشار وحفص بن ابي بردة مثلاً وبين جميل وكثير مثلاً وكل اثنين من هؤلاء عاشا في عصر واحد ؟ وأجيبك ان نعم ! الا انه مهما تنوعت أساليب البلغاء في العصر الواحد فان لكل عصر في بلاغته طابعاً واحداً يجمعها كلها في كنفه ويضمها تحت جناحه ، حتى ان ذلك الناقد الخبير اذا طرحت عليه اثراً من الآثار في الشعر او النثر فلم يهتد الى شخص صاحبه ، فانه مهتدٍ غالباً الى العصر الذي عاش فيه .

الى هنا خرجت لنا نتيجتان : الاولى ان الادب العربي في مصر (على انحصار تذوقه في طائفة المتأدبين) لم يتخذ الى الآن سمتاً واحداً ولم يطبع بعد بطابع معين ، بل انه مازال أمشاجاً من الاساليب واللهجات تسلخ من هنا وتلتقط من هناك وذلك طبيعي بحكم ماجلبنا عليك من الاسباب . على ان الزمن وحده كفيل بان يقارب بين هذه الأنواع من الالسنة المختلفة حتى يدرجها كلها في جنس واحد . ويطبعها بطابع واحد . حتى مايبقى بينها غير تلك الفروق الدقيقة التي لا بد منها طوعاً لاختلاف البيئات واختلاف الشخصيات .

والنتيجة الثانية هي ان فصيح العربية لبث الادهار الطوال بحجزة عن سواد المصر بين لم تتصل به مداركهم ، ولا هو اتصل الى هذه الغاية باذواقهم . واذا نحن زعمنا ان شاعراً او ان كاتباً تهيأ له ان يترجم بفصيح العربية عما يجيش في نفسه من مشاعر مصرية ويحسن تجلية كل مايترقرق في نفسه من وجوه الاحساس المختلفة فان احداً لا يستطيع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يزعم ان العربية الخالصة استطاعت وخاصة في هذا العصر عصر العلم الحديث وما هجم به علينا من الوان المخترعات ان تؤدي شيئًا من الاسباب الدائرة بين الناس . بل لقد ناءت العامية المشتقة من اصل عربي باداء اكثر مايقع لاعيننا وتسمعه آذاننا في هذا العهد من صنوف المرئيات والمحسوسات في وجوه الاغراض المختلفة وذلك شيء لا يكاد يأخذه حد او يحصره عد ، وهو كل يوم بل كل ساعة في ازدياد وقوة اطراد ، فاضطر الناس خاصتهم وعامتهم الى ان يتخذوا الالفاظ الفرنجية مع تحريف كبير او صغير للتعبير عن هذه الاشياء الجديدة التي لابد لهم في وسائل عيشهم من التعبير عنها ودخلت هذه الالفاظ في العامية وطبعت بطابع اللسان المصري (ولابد مما ليس منه بد) .

والعجب العاجب انه مع كل هذا ومع ادراك جميع العلماء والادباء لمبلغ هذا الخطر على اللغة وكثرة تقاولهم فيه وشدة احتفالهم له ودعوتهم الى التشمير لمعالجته لم يجرد له جهد صادق ولم يبلُ احد فيه بلاءً يستحق اي التفات . ولقد كان كل ما رزقنا في هذا الباب من الأساة المصلحين جماعة ممن لهم حظ كبير او صغير من الاطلاع على اللغة . وهؤلاء قد انصدعوا الى شعبتين : الشعبة الاولى قد القت كل همها وجهدها الى مراجعة كتاب (درة الغواص في اوهام الخواص) للحريري . وكتاب (لغة الجرائد) لليازجي ونحو ذلك . واخذت نفسها بالارتصاد للشعراء والكتاب البارعين لتنقدهم وتزدريهم وتتهمهم بشدة الجهل باللغة وتأخذ احدهم بانه قال : (اثر على الشيء والصحيح اثر فيه) !! وآخر يأخذ ثانيًا بانه قال : صحيفة اذ هو يريد صفحة (والصفحة الوجه الواحد والصحيفة الورقة بوجهيها) !! وثالث يعير ثالثًا انه أنث الكأس ما يحوي شيئًا اذ هو لا يؤنث الا اذا كان مملوءاً ... ونحو هذا من فنون التعقب حتى أخافوا الكتاب والشعراء واسترهبوهم وحبسوا أقلامهم عن الانطلاق في اقطار الاغراض المختلفة خشية ان يتسقطهم هؤلاء النقدة (ان صح هذا التعبير) وملكوهم عن الترجمة عن كثير من المعاني الطريفة لكيلا يتهموا بانهم جاوزوا ما نص عليه الحريري واليازجي ، وتلك لعمر الله من احدى الكبر !

ولقد كان هذا النوع من النقد ضربة موجعة للغة العربية نفسها . ثم تعالوا ايها العلماء اللغويون الذين لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار (على حد المثل) الم يقل أئمة العربية ان حروف الجر تتناوب واي مهلكة مع هذا للغة في ان تنوب (في) عن (على)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مادة التأثير ؟ بل انني لأزعم ان (أثر عليه) أبلغ كثيراً من (اثر فيه) لان حرف (على) ادل على السطوة والتمكن من حرف (في) ولقد يقول الناس : (وجه الشيء الى كذا) اذ يقول امام العربية الجاحظ (وجهه على كذا) . كما يقول الناس : نشزت المرأة عن زوجها) اذ يقول ابو الفرج (نشزت المرأة على زوجها) ! ... أترى بعد هذا ان نصدقكم انتم ونكذب الجاحظ وابا الفرج ؟ انكم إذن حق مغرورين .

ثم أليس في باب التجوز او الاستعارة او ماشئتم مما تعلقتم به من قشور البيان ما يتسع لاساغة المثلين الآخرين ان كنتم في اصل (نقدكم) من الصادقين ؟

وهنا اذكر عن صديقي شاعر النيل نكتة لطيفة نتصل بهذا المقام ، فلقد وقع في بعض قراآته على ان اللغة العربية ذهب نصفها فلم تحتفظ المعاجم الا بنصفها الآخر فهو كلما اخذه آخذ بخطإ لغوي او نحوي او صرفي اجاب من فوره : ما أدراك ان هذا سائغ في نصف اللغة الضائع ؟ ! !

اما الشعبة الثانية فجماعة كما يقول المثل العامي : (حطوا في بطنهم بطيخة صيفي) ! فاستراحوا والحمد لله تعالى على ان لغة العرب قد وسعت كل ما كان وما يكون وما سيكون وما سوف يكون . فان اللغة التي وضعت للجمل وللسيف وللاسد وللخمر وللغزال ولنحوها من ذوات الاسماء لايمكن ان تعيا بان يكون فيها كل مايدل على كل ماترمينا به اوربا واميركا كل يوم من معان طريفة ومخترعات حديثة ! !

ياسبحان الله ! ألغة كانت هذه ام منجمة تستفصح الغيب وتستكشف ما عسى ان يرمي به القدر من وجوه المعاني حتى بعد الف وثلاثمائة عام وترتصد لكل ما ولده الذهن البشري واستخرجه بمحض التأليف والتوليد او راض الطبيعة على اخراجه بالكد وطول التجربة ، فاذا الالفاظ والصيغ العربية محضرة على الرف لا يعيب من يشاء التعبير بها عن كل هذا الا ان يمد اليها يده فيطرحها ، وماهو الا ان تشك الفاظها تلك المعاني وتستوي بها لمدارك الناس في غير عسر ولا عناء .

واعجب من شأن هؤلاء جماعة زعموا انهم متجردون في طلب مجفو اللغة وتلقط كل مايؤدي كل حديث في العلم والفن والزراعة والصناعة وعلوم الطبيعة الخ الخ . ! أليست لغة العرب قد وسعت بظهر الغيب كل ما كان وما يكون ؟ فيدعو (الشبشب) اكرمك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الله (الكوث) وعلبة الحلى (الجؤنة) ثم يروح يمن عليك بانه اخرج لك من لغة العرب كل مايوفي بحاجات العصر الحديث ! وتراه بعد هذا يمشي على الطوار مدلاً مثنايهاً يهز رأسه ويثني عطفيه من فتنة واعجاب ظاناً انه لاشغل للجالسين على حواشي الطريق الا الحديث في اختراعه والاعجاب بفقهه في اللغة واحاطته بمكنون أسرارها .

ولقد يجرؤ الشيخ من هؤلاء على ان يزعم لك ان في العربية مايترجم عن كل قطعة وكل جزء من اجزاء (المرحوم) المنطاد ر ١٠١ ولماذا لايكون في لغتنا كل هذا ؟ البست الطيارة من اختراع العرب ؟ وان اول من صنعها كان العباس بن فرناس ؟

ياناس ! والله ماقتلنا ولا قتل العلم ولا قتل اللغة معنا الا هذا الغرور .

نعم ! شهد الله ان لغة العرب من أثرى اللغات واغناها وابدعها وابلغها ، على انها لقد ادت واجبها وعبرت عن كل مطالب الحياة يوم كانت الامم العربية مستأثرة بالحضارة او مشاركة على الاقل فيها ، فكيف تريدونها وقد انقبضت عن الحضارة او انقبضت عنها الحضارة القرون الطوال — كيف تريدونها بعد هذا على ان تفتح عينيها على آلاف المستكشفات والمخترعات فتؤدي معانيها في يسر ورخاء ؟ انكم إذن لقوم ظالمون .

* * *

ولقد زعمت فيما زعمت ان صحيح العربية مازال بحجزة عن سواد الناس . وذلك انه في اي عصر من العصور لم يبذل اي جهد في تبسيط هذه اللغة العتية المتعاصية في مفرداتها وصيغها وقواعد نحوها وصرفها . حتى تستوي لمدارك السواد كما لم يبذل اي جهد في ترقية مدارك هذا السواد حتى يفهم هذه اللغة او يلمح بلاغاتها لمحاً .

ولقد كان من أبلغ أسباب هذا التعويق ان تواثبت في اثناء هذه النهضة الحديثة طائفتان : احدهما شيعة القديم ، والثانية انصار التجديد . تلك تقول بعدم تخطي لغة العرب المأثورة حتى في كل مايتجهم من الجديد . وعندنا من أبواب التجوز والاشتقاق واتخاذ المجفو من مفردات العربية مايغنينا و يكفل اداء جميع حاجاتنا . اذ هذه تدعو الى التعريب وهي سنة اتخذها من سبقنا من أئمة العلماء في الدولتين الأموية والعباسية حين هاجمت آداب الفرس وعلوم الرومان والاغريق الامة العربية . ثم ظل هذا الخلاف وظل الى الآن ولا زالت اللغة من تحته تلوى و ينفصد من الجهد عرقها بما انقطع من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نفسها في أداء حاجات الناس ، اذ الغرب يزحمها كل يوم بفنون لاحصر لها من المخترعات والمستكشفات مانصيب نحن الجهال وعامة الخلق ، بل ولا سادتنا اللغويون — لها دلالة من لغة العرب ، لا على طريقة اشياع القديم ولا على طريقة أنصار التجديد[1] !

« باحث »

(١) ملاحظة — أستدرك على صديق لي من صفوة الادباء انني لم اذكر (كثيراً) الشاعر فيمن وفدوا على مصر طلباً لرفد امرائها وانني لاكبر هذا الاستدراك وأقرر انه قد غاب عني ان كثيراً الشاعر الأموي الصميم كان فيمن وفدوا على مصر وهذا الاستدراك خطره ودلالته على ان خاصة الحكام في مصر قد احتفلوا للغة العربية من عهد الدولة الاموية . واني لاشكره وأقدر ملاحظته وان كنت لم اذكر من ذكرت من الادباء لذين وفدوا على مصر على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل .

اما ملاحظته الثانية فانني زعمت ان المصريين لم يكن لهم عهد بالعربية قبل الفتح الاسلامي . والواقع انه كان في مصر من قبل هذا من يحذقون العربية وانا اعرف هذا ولا اجهل على الاقل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب الى المقوقس بالعربية وانه لابد ان يكون هناك في مصر من ترجم كتاب النبي اليه ، ولكن ليس يذهب عن صديقي الاديب ان الحديث انما كان مرسلا في اول عهد الامة المصرية بالعربية لا عهد افراد اومئات منها بها وفينا الآن آلاف وآلاف يحذقون الفرنسية والانجليزية ولكن لا يستطيع ان يزعم الانسان ان الامة المصرية تحكم الفرنسية والانكليزية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net